العرب
الجمعة 2020/11/05
السنة 44 العدد 12231

«في بلاد العم سالم» فيلم تونسي قصير يشبه طلقة من مسدس تشيخوف

حكاية حارس مدرسة بعيدة تختصر خيبة أجيال من التونسيين

"الأصل في السينما هو الشعر" مقولة وجدت الكثير من الرواج لدى عدة نقاد وسينمائيين حتىٰ، ولكن المتتبع للكثير من الأفلام التي تقدس هكذا مقولة سيجد أن لا شعر فيها بقدر ما فيها تهويمات تدعي الشعر. وفي الجانب الآخر هناك من يدعو إلىٰ تخليص السينما والروايات من الشعر لأنه يضر بها، وهذا أيضا رأي متحامل. لا تضاد بين الشعر والسرد والكتابة والصورة، إنما العلاقة هي التكامل. فيلم يخلو من الشعرية ربما قد لا يقدر له الصمود أكثر من لحظة عرضه. وهذا ما انتبه له منتجو الفيلم القصير "في بلاد العم سالم" لينجزوا عملا رهانه التكامل.

محمد ناصر المولهي
كاتب تونسي

ضمن فعاليات أيام قرطاج السينمائية عرض أخيرا الفيلم القصير "في بلاد العم سالم" للمخرج التونسي سليم بالهيبة الذي يشارك في المسابقة الرسمية للأفلام الروائية القصيرة في هذه الدورة.

وقد توج الفيلم بالعديد من الجوائز من بينها جائزة مهرجان الفيلم الأفريقي ببلجيكا في دورته الـ25، وكذلك جائزة في الدورة الـ25 للمهرجان الدولي لسينما المؤلف في الرباط (المغرب). وهو ما يؤكد أهمية هذا العمل الذي يبدو في ظاهره حكاية بسيطة بينما يخفي اشتغالا ماهرا علىٰ التفاصيل لصياغة حكاية شعب بأكمله من خلال قصة حارس مدرسة.

في مكان بعيد

يبدأ الفيلم من مشاهد لحارس مدرسة عين الرقاد، التي تقع في منطقة ريفية بعيدة بين الجبال والسباسب، في زمن لا نعلم منه سوى أنه قبل العودة المدرسية، بينما ريح الخريف تبدأ في الحركة من حوله منبئة بانتهاء فصل الصيف وعطلة الدراسة السنوية.

رجل خمسيني صامت، بوجه تملؤه الجدية والترقب، يعمل دون كلل من مكان إلىٰ آخر بين أرجاء المدرسة. يحاول إصلاح أعطاب الطاولات والكسور في زجاج النوافذ والصابورات، ودهن الجدران وتهيئة القاعات لاستقبال التلاميذ، كل ذلك بمفرده لا أحد يدفعه إلىٰ ذلك.

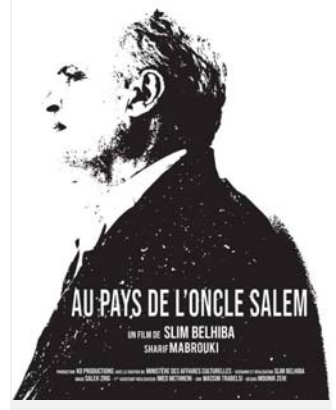

الإشارة والتلميح والتكثيف سمات ميزت الفيلم الذي لم نر فيه ولو لقطة زائدة عن الحاجة في تفاصيل مضبوطة

يتوقف حارس المدرسة عند العلم التونسي الممزق علىٰ العمود في وسط الساحة، حيث تقام تحية العلم الصباحية كل يوم في المدرسة، علىٰ غرار مدارس تونسية كثيرة.

من هنا ينتقل الحارس في رحلة مثيرة من القرية التي لا نعرف اسمها، إلىٰ شوارع المدينة، هي تونس العاصمة ربما. رحلة لم ينبس فيها الرجل بكلمة، فيما تتبعه الكاميرا بين أزقة المدينة القديمة، وصولا إلىٰ محل، من المحل يقتني علما تونسيا جديدا. السعادة تحتل وجهه، وها هو في طريق العودة إلىٰ مدرسته، مملكته، بلاده الراسخة بين الجبال.

الرحلة الصغيرة والبسيطة لا تنتهي بهدوء كما تنبئنا تفاصيلها المشغولة بعناية، بل تنقلب رأسا علىٰ عقب، العم سالم يجد نفسه وسط مظاهرة، هي وفق ما يبدو مظاهرة أيام الثورة التونسية ضد نظام بن علي، يفشل في الفرار، يحاصرهم البوليس، ويودى به إلىٰ السجن بتهمة جاهزة حينها ضد المتظاهرين من قبيل الإخلال بالنظام العام والشغب والتخريب وغيرها.

الرجل بريء مما ينسب إليه. الحكم جائر، لكن وللمفارقة ما يثبت التهمة هو أنه يحمل علما في يده. العلم أداة جريمة وإثبات لها.

مفارقة ينجح الفيلم في صناعتها بعناية كما سنرى في تشكيله لمشاهده ولحكايته، بشيء من الدقة التي للأمانة لا نجدها في الكثير من الأفلام التي تنسب نفسها إلىٰ الأفلام الروائية القصيرة، فيما هي لا تكتسب من القصر إلا قصر الوقت.

خلل فادح يضرب عدة أفلام قصيرة عربية، لا تنضبط في جوهرها إلىٰ خصوصيات الفيلم القصير، الذي يوحي أكثر مما يقول، والذي لا يقبل في رأيي الزوائد، لا في المشاهد أو الشخصيات أو التفرعات وغيرها مما يُسمن.

وربما من هنا يمكنني تشبيه الفيلم القصير بالقصة القصيرة، إنه يشبه "مسدس تشيخوف"، الذي جاء من مقولة الكاتب والقاص الروسي الشهير "إذا كان لديك في المشهد الأول مسدس موضوع علىٰ الطاولة، يجب أن يُطلقَ به في المشهد الثالث". ومن ثم القصة كالطلقة، مكثفة ولها هدفها. هكذا في رأيي الفيلم القصير، ولو بتنسيب.

الاشتغال على الشعرية

مصير العم سالم السجن إذن، الحارس يفشل في تركيز علم جديد في ساحة المدرسة. الجو رمادي أكثر. فقط صراخ الصبية والفتيات الصغار مع عودتهم إلىٰ الدراسة. المدرسة فضاء حي من جديد. لكن العم سالم الذي خرج من السجن للتو ليس سعيدا.

العم سالم لا يقول ولا كلمة طيلة الفيلم، عدا شتيمة يوجهها إلىٰ أحد المعلمين الضحوكين وهو يحثه علىٰ الإسراع، ومن بعدها يغرق في جو تضاعفت رماديته، واشتدت ريحه، بينما العلم القديم تزعزعه الريح بقوة.

إنها حكاية الثورة وخيباتها يرويها سليم بالهيبة بدقة ودون زوائد أو تفرعات، خيبة التونسيين الحالمين بالإصلاح رغم صعوبة الوضع، والطامحين إلىٰ صون الوطن، وليس أهم من الراية دلالة علىٰ الوطن الذي كان من المفروض أن تهيئ فيه الأجيال ظروف النجاح لبعضها البعض، وأن يكون الوطن لا كلمة علىٰ بطاقة، بل مفهوما راسخا، وأن يكون العلم لا قطعة قماش بل عقيدة.

كثيرة هي العناصر التي تلفت الانتباه في الفيلم، بداية من الأداء الممتاز لشريف مبروكي الذي قام بدور الحارس، ونعلم صعوبة أن يكون دورك دون حوار، وتتنقل من حال إلىٰ حال لتروي ما بداخلك من خلال جسدك وملامحك، وهو ما أتقنه، في جو التوتر والجد ومن ثم السعادة بالعلم الجديد وبعده الخوف، فالانكسار بعد السجن، والغضب والخيبة التي تخفي بذرة صغيرة من الأمل، لمعاودة الإصلاح.

ما يلفت أكثر هو الاشتغال الدقيق علىٰ المشاهد، سواء من أمكنة التصوير في المدرسة أو بين الأزقة، وعناصر هذه الأماكن التي تخلق شعرية المشهد، بداية من الكسر في النوافذ، وما للنوافذ من دلالة، ثم الطلاء وغيره من الإصلاحات المحدودة والتي تبدو ضئيلة أمام الوضع الذي يجب إصلاحه، هنا المدرسة، ومن بعد الدلالة الكبرى للعلم التونسي، العلم الذي يتوحد تحته التونسيون كبارا وصغارا، ويدافعون عنه بقوة ضد كل اعتداء، وكلنا نتذكر حادثة إنزال العلم التونسي من كلية منوبة قبل السلفيين أيام حكم الإخوان وكيف تصدت له شابة ليعاد العلم من جديد. العلم رمز لوطن.

تفاصيل مشغولة بعناية

ما يلفت الانتباه في الفيلم الاشتغال الدقيق على المشاهد ومن ثم الأداء الممتاز لشريف مبروكي في دور الحارس

الشعرية لا نقصد بها الإغراق في المشاهد التأملية وتركيبها بعيدا عن الحكاية، كما يفعل بعضهم تحت لافتة السينما الشعرية، ما عادت ذائقة المتلقي اليوم تقبل بشكل كامل أفلاما من قبيل أفلام تاراكوفسكي علىٰ أهميتها، وما عادت السينما مغرقة في التأملات بحجة الشعرية، الشعرية نفسها تغيرت إلىٰ الاهتمام بالتفاصيل بنوع من السردية، وربما لم ينفك الشعر أبدا منذ ولاداته الأولىٰ عن السرديات الكبرى من إلياذة هوميروس إلىٰ ملحمة فيرجل الرومانية إلىٰ ملاحم الشعراء الجاهليين وصولا إلىٰ ما يخطه شعراء معاصرون.

الشعر لم يكن في يوم بعيدا عن السرد، بل هما يتكاملان. وهنا استفادت السينما علىٰ امتداد تاريخها من قدرة الشعر علىٰ خلق كثافة سردية ومن جوهره القائم علىٰ الاختزال والإشارة والتلميح أكثر من القول.

الإشارة، التلميح والتكثيف سمات ميزت الفيلم الذي لم نر فيه ولو لقطة زائدة عن الحاجة، بل اعتنىٰ المخرج بكل التفاصيل من اللون الرمادي إلىٰ الأبيض إلىٰ الألوان المضمحلة مثل لون العلم المهترئ، إلىٰ توظيف الريح والطبيعة والأماكن الضيقة والمفتوحة. كما وظف الأصوات بعناية، وهي التي كانت تدفع الأحداث إلىٰ التصاعد، وهي تلاحق حركات العم سالم الدؤوبة.

«الغريب» يفتتح مهرجان أيام فلسطين السينمائية في رام الله

رام الله - انطلقت فعاليات مهرجان أيام فلسطين السينمائية في نسخته الثامنة ليل الأربعاء في مدينة رام الله بعرض الفيلم الروائي الطويل "الغريب" للمخرج السوري الشاب أمير فخرالدين.

وينقل "الغريب" جمهور الفيلم علىٰ مدار 112 دقيقة عبر ثمانية ممثلين إلىٰ عوالم العلاقات الأسرية في هضبة الجولان والحياة فيها وصوت الرصاص والانفجارات علىٰ الجانب الآخر من الحدود حيث تدور الحرب في سوريا.

الفيلم يروي قصة شاب اسمه عدنان، وهو طالب طب متخرّج من موسكو، يمرّ بأزمة وجودية لكونه لم يستجبْ لتوقّعات مجتمعه ولم يُلبِّ ما كان يترقبّه منه أهله، ووالده بالذات (يؤدّيه بصمت شبه متواصل وحضور لافت النجم الفلسطيني محمد بكري).

تزداد حياته تدهورا وانحدارا عندما تقوده الصدفة إلىٰ لقاء شاب مصاب بطلق ناري ما وراء الجدار العازل، ومُذْ تلك اللحظة، منذ أن يُقرّر إنقاذهُ، يبدأ عدنان رحلة مليئة بالمغامرة، يكتشف خلالها أبعادا جديدة عن نفسه وعن كونه غريبا في مجتمعه.

ويقدم الفيلم، المترجم إلىٰ اللغة الإنجليزية والذي يتضمن بعض الحوارات باللغة العربية بين أفراد من الجيش الإسرائيلي، سردا لبعض ما حدث عام 1967 ورحيل بعض السكان من مدنهم وقراهم في الجولان حاملين معهم الذكريات.

وقال المخرج فخرالدين "سعيد جدا أن يتم اختيار أول فيلم روائي لي ليكون فيلم الافتتاح في تظاهرة سينمائية مهمة".

وأضاف في كلمة قبل عرض الفيلم علىٰ مسرح قصر رام الله الثقافي الذي امتلأت مقاعده وعددها 800 بالجمهور، أن عرض الفيلم "فخر لهضبة الجولان ودليل علىٰ تشاركنا في نفس الحالة التي نعيشها من احتلال وفي نفس الوقت نفس حالة الانتظار وأتوقع الأمل أيضا".

وأوضح فخرالدين "فيلم الغريب هو فيلم عنك أنت.. عن والدك عن جدك عن الإنسان اللي رح يجي بعدك، ويظل فيلم الغريب عن الإنسان اللي بعيش علىٰ هذه الأرض وهي جزء منه وهو جزء منها".

وقال "أتمنىٰ مشاهدة عميقة التفكير وأدعوكم إلىٰ عالم خاص في هضبة الجولان مليء بانعكاسات ستجدونها قريبة من قلوبكم أيضا".

ويتضمن برنامج المهرجان هذا العام أربعة عشر فيلما روائيا طويلا وسبعة وثائقيات طويلة، بالإضافة إلىٰ ستة أفلام قصيرة تُعرض بالتعاون مع مهرجان كليرمونت فيراند الدولي للأفلام القصيرة.

وجاء في نشرة للمهرجان أن الأفلام "اختيرت هذا العام لتحكي قصصا إنسانية من أنحاء مختلفة من العالم، تعزز الانتماء إلىٰ الروح الإنسانية الواحدة وتذكّر بمركزية الثقافة حتىٰ في أصعب الظروف، وأهمية الفن العابر حدود الجغرافيا والسياسة".

يعرض المهرجان أفلاما من فلسطين ومصر والمغرب والجزائر ولبنان وسوريا وإيران ومالطا والبوسنة وصربيا وفرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة والدنمارك والسويد.

وقال منظمو المهرجان "صُمم برنامج هذا العام ليقدم إلىٰ الجمهور الفلسطيني تجارب سينمائية فريدة قد تتعذر مشاهدتها خارج إطار مهرجان سينمائي متخصص بعرض الإنتاجات المستقلة والفنية".

وأضاف المنظمون "بعض هذه الأفلام يُعرض للمرة الأولىٰ في العالم العربي ويتضمن المهرجان عروضا للأطفال والعائلة ضمن قسم الجيل القادم".

ومن الأفلام المشاركة في المهرجان "انقسام والحرب الثالثة" من فرنسا و"أبناء الشمس" من إيران و"إلىٰ أين يا عايدة" من البوسنة و"لوزّو" من مالطا، وسيكون الجمهور علىٰ موعد مع فيلم "علي صوتك" من المغرب في حفل الختام.

وقال القائمون علىٰ المهرجان، الذي تنظمه مؤسسة فيلم لاب فلسطين منذ عام 2014 بدعم من مؤسسات دولية ومحلية، إن دورة هذا العام تقام بعد دورة استثنائية في العام الماضي فرضتها ظروف جائحة كورونا.

وأضافوا "يعود المهرجان هذا العام بنسخة متكاملة تشمل عروضا سينمائية من أهم الإنتاجات السينمائية وأحدثها، لتُعرض في مدن القدس ورام الله وبيت لحم وغزة وحيفا والناصرة".

PALESTINE CINEMA DAYS
أيّـام فلَسطين السّينمَائيّة

الأفلام التي اختارها المهرجان هذا العام تحكي قصصا إنسانية تعزز الانتماء إلى الروح الإنسانية الواحدة ومركزية الثقافة

وينظم المهرجان إضافة إلىٰ عرض الأفلام وحلقات النقاش وورش العمل حول صناعة السينما مسابقة "جائزة طائر الشمس" للأفلام القصيرة والأفلام الوثائقية الطويلة، ومشاريع الأفلام القصيرة والتي انطلقت عام 2016.

ويشترط في الأفلام المشاركة في المسابقة "أن تكون لمخرجين أو منتجين فلسطينيين أو تشير إلىٰ فلسطين بشكل موضوعي".

ويتم الإعلان عن الفائزين في هذه المسابقة في ختام المهرجان وتتنافس سبعة أفلام في فئة الأفلام الوثائقية و15 في فئة الأفلام القصيرة، كما تتبارى ستة مشاريع علىٰ جائزة طائر الشمس للإنتاج.

وذكرت نشرة المهرجان الذي تتواصل فعالياته حتىٰ الثامن من شهر نوفمبر الجاري "علىٰ مر السنين، أصبح المهرجان منبرا للإنتاجات المحلية والدولية، وأصبح أيام فلسطين السينمائية هو المهرجان الذي وضع فلسطين علىٰ خارطة ثقافة السينما العالمية".

وأضافوا "نتطلع جدا إلىٰ لقاء جمهورنا في عروض المدن المختلفة وإلىٰ انضمام صنّاع الأفلام الفلسطينيين للقاءات ملتقىٰ صناع السينما وورشاته".

الخيبة تبدأ من الجماعة إلى الفرد